

المعرفى والوجدانى والعملى

فى منهج الإمام الغزالى رحمه الله

إعداد:

د. عامر غضبان

دكتوراه علم النفس التربوى
الجامعة الأردنية

كل امرئ يسعى لإصلاح سلوكه يحتاج إلى تغيير فى جوانب متعددة فى نفسه وبيئته، وعمليات التغيير الناجحة التى تثمر أثراً دائماً هى التى تعالج الجوانب المختلفة فى نفس الإنسان، أى الجانب العقلى المعرفى، والجانب الوجدانى الانفعالى، والجانب العملى السلوكى.

الممارسة العملية وأداء التمرين السلوكى أمراً يسيراً، أو مرغوباً. مجرد العلم، أو التذكر والمراجعة للأفكار التى تساعد على الإصلاح، لا يؤدى دائماً إلى استسلام القلب واختفاء نوازع الشهوة والأهواء، بل توجد حالات تكون فيها الفكرة العقلية مثبته منطقياً وواقعياً، لا شك فيها، لكنها لا تكون فاعلة فى الدخول للقلب وتفتيته، مثل فكرة الموت، فالجميع يعلم أن الموت قادم، لكن لا يتساوى الناس فى صلاح قلوبهم نتيجة هذه المعرفة.

- بعض حالات تعسر الإصلاح تكون نتيجة ارتفاع نوازع الشهوات والأهواء، حتى تغطى المعرفة الصحيحة، فتصبح المعرفة مشوهة، وتكون هذه الحالة كالمرض المزمن فى صعوبة علاجها.

- أمام هذه النماذج المتعددة للتفاعل بين الجوانب المختلفة، توجد مداخل متعددة لمواجهة الشهوات والأهواء، منها أن يبادر الإنسان لممارسات عملية - ولو قسراً لنفسه - تؤدى فى النهاية إلى تغيرات انفعالية إيجابية، تحول المعالجة إلى عملية أكثر سهولة، وتؤدى إلى ارتقاء فى الانفعالات، وزيادة فى المعارف.

- حتى فى حالات نجاح المعالجة وتوصل الإنسان إلى درجات عالية من الصلاح، قد يظهر أثر لبعض دواعى الشهوة أو وساوس الشيطان التى تدفع للتراجع والنكوص، والطريق السليم فى هذه الحالة أن من عرف فليلزم، ومن استفاد صلاحاً لنفسه فهو مسؤول عن دوامه كما كان نشطاً فى بدايته. رحم الله الإمام الغزالى، وأعانتنا على الصلاح باطنياً وظاهراً.

هذه المعالجات بقوله: «هذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك فى الدنيا والآخرة هاجت رغبته فى البذل إن كان عاقلاً، فإذا تحركت الشهوة (شهوة الحرص وحب المال) فينبغى أن يجيب خاطر الأول ولا يتوقف، فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصد عنه».

المبادئ المستخلصة:

لا يخفى أن الإمام الغزالى رحمه الله يتنبه إلى ضرورة ارتباط الجوانب الثلاثة: المعرفى والانفعالى والسلوكى، فى عمليات الإصلاح الذاتى، لكنه ينبه إلى نماذج مختلفة من التفاعل الإيجابى والسلبى بين هذه الجوانب، ويمكن أن نقرر هنا بعض المبادئ العامة المتعلقة بهذه التفاعلات من المثاليين السابقين:

- التغيير فى الجانب المعرفى (العلم) عنصر ثابت فى أى معالجة، أو هو «شرط ضرورة»، وليس الشرط الوحيد.

- المرحلة التى تستقر فيها المعالجة وتؤتى ثمارها هى حالة صلاح القلب، أو: اتزان الانفعالات واستقرارها بالشكل الذى يجعل

القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب، وصرفت همّه إليه. **المثال الثانى:** عرض الغزالى رحمه الله فى «الإحياء» (ج ٢ ص ٢٦٢) فى باب بيان علاج الحرص والطمع، وباب علاج البخل منهجاً مفصلاً، يلاحظ فيه أنه يجعل كل معالجة للطمع أو للبخل متكونة من ممارسة عملية، ومن معالجات معرفية، وهو يعتقد أن المعالجات المعرفية ضرورية فى أى علاج، فهو يقول: «إن علاج البخل بعلم وعمل، فالعلم يرجع إلى معرفة أفة البخل وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف، ولكن قد يقوى البخل بحيث يعمى ويصم، فيمنع تحقق المعرفة فيه، وإذا لم تتحقق المعرفة لم تتحرك الرغبة، فلم يتيسر العمل، فتبقى العلة مزمنة».

وقد ذكر الغزالى معالجات متعددة ومختلفة، منها: كثرة ذكر الموت، ومنها: كثرة التأمل فى الأخبار الواردة فى ذم البخل ومدح السخاء، ومنها: أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً فى حشمة الجود. ويعلق الغزالى على

والإمام أبو حامد الغزالى، إمام التزكية العظيم رحمه الله، أشار فى كتابه «إحياء علوم الدين» إلى طرق وأساليب متقدمة وممتعة فى ربط معالجات هذه الجوانب المختلفة عند من يسعى لإصلاح الذات وتربية النفس، وستعرض هنا مثالين من هذه الأمثلة، الأول عن تنمية حس مراقبة الخالق سبحانه وتعالى، والثانى عن علاج شهوة الطمع والبخل.

المثال الأول: يقول الإمام أبو حامد الغزالى فى «الإحياء» (ج ٤، ص ٣٩٨): حقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب، وصرف الهم إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال: إنه يراقب فلاناً ويراعى جانبه.

ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً فى الجوارح وفى القلب (الجانب العملى)

أما الحالة (الجانب الوجدانى) فهى مراعاة القلب للرقيب، واشتغاله به، والتفاته إليه، وملاحظته إياه وانصرافه إليه ...

وأما المعرفة (الجانب المعرفى) التى تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب فى حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك.

فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً - أعنى أنها خلت عن الشك - ثم استولت بعد ذلك على القلب، قهرته، فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت.

فإذا استولت (المعرفة) على

